ماهر شرف الدين

السوريون شجر



شعر

السوريون شجر

٧

تاريخ الطبعات:

الطبعة الأولى: 2017

الطبعة الثانية: 2021

ماهر شرف الدين

السوريون شجر

شعر

الطبعة الثانية، 2021

منشورات ماهر شرف الدين

ISBN: 978-0-9985392-6-3

قسوة الكاميرا

لا وجود لألمٍ مصوَّرٍ
مثل الألمِ السوريِّ
أيتها الكاميرا ارأفي بنا
بعدما يئسنا من رأفة السلاح.

الجلَّاد الوسيم

إذا كان ثمَّة من تعريفٍ للحنين
فهو: الألم!

الشوقُ يكون إلى الناس
لكنَّ الحنينَ يكون إلى الأرض.

في سوريا اختلط الناسُ بالأرض
فلم يعد يَعرف مَنْ هو مثلي:
هل يشتاقُ أم يحنُّ!

أيها التراب
منذ أن غادركَ جسدي
وأنت كتلةُ أعصابٍ وشرايين!
ولكنْ هل أنتَ كذلك حقاً؟
هل تتألَّم لفراقنا
كما نتألَّم لفراقك؟

أيها الحنين
أيها الجلَّاد الوسيم!

مئذنة العُمَري

المئذنة التي قطعوا رأسها
نزفتْ من العنق دماً أحمرَ
كأيٍّ إنسانٍ مقطوع الرأس.

المآذن في بلادي صارت بشراً
منذ آذار 2011.

الجميعُ عرف بذلك
بعدما سمع مئذنة العُمَري تئنُّ وتبكي
حتى القاتل عرفَ بذلك
لذا قطع رأسها.

السوريون شجر

منظرُ القتلِ بلا دمٍ أكثر رعباً،
هذا ما حدَّث به النَّاسُ أنفسهم
وهم يشاهدون أطفال الغوطة الشهداء:
الأقدامُ عند الرؤوس
والرؤوسُ عند الأقدام
ككلِّ العائلات الفقيرة
حين تنام في غرفةٍ واحدةٍ.

وأنتَ تشاهد منظر الأطفال
المخنوقين على الشاشة
ستشعر بالاختناق مثلهم
كأنَّ الكيماوي
خرجَ من الشاشة فعلاً
ودخلَ جهازك التنفُّسي.

الطبيبُ الذي سمعَ
الطفلةَ الناجيةَ وهي تقول:
«أنا عايشة، أنا عايشة»
ليته قال لها:
نعم عمّو إنتِ عايشة... ونحن الموتى!

الابنةُ التي قُتِلَ أبوها
حين تكبرُ
ستعلّق صورته في منزلها
وستفخر بأنها ابنةُ شهيدٍ
لكنَّ الأب الذي قُتِلَت ابنته
ماذا سيفعل كي لا يقتل نفسه؟

على خريطة العالم
ثمَّة كتلةٌ من الضباب
تُغطِّي بلدي
وأنا لا أعرف كيف أمسحها
دون أن أؤذيَ أحداً.

الكيماوي لم يخنق الناسَ فحسب
بل خنق البلادَ كلَّها
سوريا تختنق
ونحن بأيدينا المكسورة
لا نستطيع فتحَ أيٍّ نافذةٍ!

الحفرةُ الكبيرةُ التي حفروها
كمقبرةٍ للأطفال
تحوَّلت فجأةً إلى حضنٍ
شدَّتهم إليها وهي تهمس لهم:
الأرضُ أمٌّ أيضاً
تعالوا إليَّ يا أطفالي
الأرضُ أمٌّ.

السوريون شجرٌ
السوريون شجرٌ
السوريون شجرٌ

بكمِّ قميصي

بكُمِّ قميصي
سأمسح زجاجَكِ يا سوريا

بما تبقَّى من دموعي
سأغسل قدمَيْكِ الجريحتَيْن
وأجلس كالهرِّ أمامكِ
لألعقَ جراحكِ
يا بلدي ويا حبيبتي.

بكلِّ ما بقيَ في داخلي من شوقٍ
لأوَّل امرأةٍ أحببتُها
سأُدلِّكُ جسدكِ المهشَّمَ
وسأنام عند قدمَيْكِ
حتَّى تشفي.

عذَّبوكِ يا بلدي
عذَّبوكِ يا طفلتي

وأنا الأبُ
والابنُ والأخُ
أقفُ عاجزاً
يدي مكسورةٌ
وقلبي كالكُرَةِ بين أقدامهم.

النّاسُ تحلمُ بكواكبَ أخرى
ونحن نحلمُ بأرضكِ
الناس تحلمُ بالنوم على سطحِ القمرِ
ونحن نحلمُ بالنوم على سطوحكِ.

بكمّ قميصي
سأمسح زجاجَكِ يا بلدي
بيدي وكُوعي
بدموعي
سأمسح زجاجَكِ
بمنديل أُمِّي وفستان حبيبتي
سأموت كي تعيشي
وسأمرض كي تشفي

يا سوريا
أنتِ أُمِّي أم ابنتي؟
يا سوريا
أنتِ أُختي أم حبيبتي؟

لماذا صعدتِ فجأةً إلى السطح
وألقيتِ بنفسكِ؟
لماذا كلُّ هذه الكسور في جسدكِ؟
لماذا جراحكِ عميقةٌ إلى هذه الدرجة؟

النّاسُ تمرض وتموت
وليس البلاد يا سوريا
النّاسُ تيأس وتنتحر
وليس البلاد يا سوريا
ليس البلاد يا سوريا
ليس البلاد يا سوريا

دفوف

دفوفُهم
أقوى من حديدكَ
وشمسُهم
هي التي تمنحُ
سبطاناتِ دبَّاباتكَ
تلك اللمعة.

دفوفهم السمراء كأرغفتهم
المدوَّرةُ كحياتهم البسيطة
ستصمُّ أذنَيْكَ
وتُؤرق نومكَ
وستذهب بكَ إلى الجنون.

دفوفهم
أقوى من حديدكَ
وصوتهم
-هذه المرَّة-
بلا رعشةٍ
وشمسهم
ستمنعكَ من النوم.

انظرْ إليهم
وهم يرقصون على
صفيحكَ الساخن
بلا خوفٍ
يدوسون
السنوات التي
مرَّت بلا معنى.

أيُّها الحاكمُ
الذي صنع عرشه
من حطامِ مرآةٍ
سترى اليوم وجهكَ
في مراياهم.

دفوفهم التي تحوَّلت إلى مرايا
ستُريكَ اليوم
وجهَكَ.

الدبَّابةُ التي
تحوَّلت إلى محراثٍ
تفلح الآن سهولَهم
أيُّها الطاغيةُ الثورُ افلحْها
ازرعْها بالجماجم
لن تُنبِتَ إلَّا تلك الزهرة
التي خافها والدكَ من قبلُ
الزهرة التي
ستثلمُ شفرةَ المحراثِ
وستثلمُ عرشَكَ.

(آذار 2011)

ثلج

بعد انتهاء المجزرة
نظرت الأمُّ الثكلى
إلى الثلج الذي بدأ
يغطّي المدينة
وقالت له:
يا حيف يا ثلج
كيف تنزل بكلٍّ هذا البياض
بعد الدم الذي قد سال!

الثلج الجبان
غير المعني بالمجزرة
ظلَّ يهطل على المدينة
أبيضَ
كأنَّ شيئاً لم يكن!

الأطفالُ
وجدوا طريقةً رائعةً
لمعاقبة الثلج:
صنعوا منه
رجلَ ثلجٍ
على شكلِ امرأةٍ
تحمل طفلها المقتول!

خَجِلَ الثلج
من نفسه
ازداد بياضاً.

الثلجُ يا أطفال
حين يخجل
يزداد بياضاً
لـمَ لا تصدِّقونه؟
الثلج أبيض
لأنه خجلان منكم.

لا يستطيع الثلج
أن يكون أسودَ.
افهموا ذلك
واغفروا له.

هذا الثلجُ
دمٌ أبيض
نزيفٌ أبيض
دموع بيضاء.

معجزات سوريَّة

الطائرة الورقية
التي صنعناها في طفولتنا
من ورق جريدة «الثورة»
لا أعرف كيف كان الهواءُ
يستطيع حملها!

والسفينة الورقية
التي صنعناها في طفولتنا
من ورق جريدة «تشرين»
لا أعرف كيف كانت تعوم
على الماء ولا تغرق!

والضحكات التي
كنَّا نُطلقها على
نكاتِ الممثِّلين في التلفزيون الحكومي
لا أعرف كيف حدثتْ
ولم تُحطِّمْ أسناننا الصغيرة!

مثل هذه المعجزات في سوريا
لم تكن لتخطر في بالنا
ونحن نفرشُ الصفحات الداخلية
من جريدة «البعث»
تحت جاط الفول
كي يَسْلَم من شَرْشرته
وجهُ السيِّد الرئيس
على الصفحة الأولى!

الصرخة

حصلَ الاستعصاءُ في سوريا
لأنَّ الصرخة أكبر من الحنجرة!

أيُّها السوريُّ اصرخْ
الحرِّيةُ ليست مرهفةَ السمعِ
ولن تسمع نداءكَ
ما لم تصرخ!

الصارخُ حرٌّ
العبدُ لا يصرخُ.

وسُلَّمُ الحرِّيةِ
سلسلةٌ من الصرخات.

الصرخةُ أفقٌ
الصرخةُ وثبةٌ
اصرخْ تَثِبْ!

كم من الصرخاتِ
تفصلُ السوريِّين
عن حرِّيتهم؟

أيها السوريُّ
لا تتوقَّفْ عن الصراخ
حتى يسمعكَ
هذا العالم الأطرش.

ضعْ فمكَ في أُذُنه
ثمَّ اصرخْ
بكلِّ شوقكَ إلى الحرِّية.

لقد وضعوا القطن
في آذانهم
وعليكَ أن تضع البارود
في حنجرتك.

(2013)

عكَّازة جدِّي

اليومَ مررتُ في سوقٍ شعبيَّةٍ فرأيتُ العكازة المزخرفة التي وعدتُ جدِّي بمثلها قبل عشر سنوات. اليومَ أمرُّ بجانب العكَّازة يا جدّي وأفكِّر بقبركَ الذي حرمَني الطغاةُ من زيارته بعدما حرمَني الفقرُ من الوفاء بوعدي لك بشراء العكَّازة.

الويل لبلادٍ
لا تحترم المشاعر الصغيرة.

قدمان

حجارةُ الجبل السوداء تزورني في المنامات كلَّ ليلة. أحياناً أراها تشبه الوجه المجعَّد لجدِّي نايف، وأحياناً أراها تشبه الوجه الطليق لجدَّتي ميثا. كلاهما ماتَ في غيابي -ميثا ونايف- وكلاهما حَكَمَ عليَّ بأن أبقى، ما دمتُ حيًّاً، ذلك الولد الهائم الذي لمْ تشبعْ قدماه الحافيتان من تراب أرضه التي احتلَّها الغرباءُ.

الـمدفأة

ذكرياتي العائليَّة هي تلك التي نكون فيها متحلِّقين حول المدفأة نُـحمِّص الخبز أو الكستناء ونسمع قصَّةً عن بطولات الأجداد.

ذكرياتي العائليَّة لـمْ تفارق تلك المدفأة منذ أن فارقتُكِ يا بلدي.

بـذار

الأرض المبذورة بعَرَقكَ يا جدِّي بدأتْ تُنبتُ قمحاً غريباً قال أهلُ القرية بأنهم لـمْ يروا مثله أبداً وبأن كلَّ سنبلةٍ من سنابله حملتْ سبعَ حبَّاتٍ بالضبط هي عدد السنوات التي فصلتْ بين موتكَ وبين قيام الثورة التي حلمتَ بها وأنتَ تبذرُ ذلك العَرَق.

وجه الـموت

حين ننظرُ إلى صور الموتى فنحنُ لا نراهم، بل نرى موتَهم. وجوهُهم في الصور هي وجهُ الموت الذي ما نزال ندَّعي -حتَّى اللحظة- بأننا لمْ نَرَهُ من قبل!

المذهب السوريالي

لو كتبَ قاصٌّ قصَّةً قصيرةً يقول فيها إنَّ حكومةَ بلدٍ ما استأصلتْ حنجرةَ مغنٍّ عقاباً له على أغنية سياسية، لاتَّهم القارئُ هذا القاصَّ بالمبالغة والعنف المجاني.

ولو أرسل روائيٌّ إلى دار نشرٍ مسوَّدةَ روايةٍ تبتدئ لحظةَ عثر الناس على رسام كاريكاتور محطَّم اليدَيْن بسبب لوحة ساخرة رسمها عن الدكتاتور، لتمَّ رفض هذه الرواية ولطُلِبَ من الروائيِّ المزيد من الواقعية.

ولو أرسل شاعرٌ إلى مجلةٍ قصيدةً يصف فيها الفراغ الذي خلَّفه قَطْعُ عضو تناسلي لطفلٍ كتب على حائط مدرسته شعاراً، لطلبتْ إدارةُ المجلَّة من هذا الشاعر الابتعاد عن المذهب السوريالي لأنه بات قديماً ومستهلكاً.

اليوم، بعدما شاهدنا على «يوتيوب» عنقَ المغنِّي، ويدَ الرسَّام، وحوضَ الطفل، على القارئ ودار النشر والمجلَّة تقديم اعتذار مكتوب إلى القاص والروائي والشاعر.

(2011)

منام النازح

حدَّثني نازحٌ سوريٌّ قال:

رأيتُ في ما يرى النائمُ ملاكَ الخرابِ فرجوته أن يرحل عن وطني. فقال: لن أرحل حتى تعطيني ألفَ دينار ذهباً.

دبَّ الفرح في قلبي فقلت له: موافق.

- أنتَ الـمُعدَم النازح من أين لك الذهب؟!
- سأبيع كلَّ ما أملك.
- لكنك لا تملك شيئاً.
- سأبيع نفسي.
- تبيع نفسك وتصير عبداً!
- نعم، أصيرُ عبداً.

ابتسم ملاكُ الخرابِ ابتسامةَ الشامت وهو يسألني بخبثٍ: إذا كنتَ ترضى بأن تكون عبداً، لِـمَ شاركتَ بالثورة إذاً؟!

فَزِعتُ من نومي مذعوراً، وأنا أحاول العثور على إجابةٍ.

(2013)

انتظار

انتظرناكِ
كما ينتظر الجائعُ رغيفاً
والظامئُ قطرةَ ماءٍ
والعاري رداءً
انتظرناكِ جائعين وظامئين وعراةً
أيتها الحرِّية.

القبو

يا سوريا
يا بلادي المتروكة لمصيرها.

ملايينُ الباكينَ يُطلُّون من حدقتَيْ عينَيْكِ
ملايينُ الباكينَ يرون الشمس للمرَّة الأولى.

أنا وجيلي
حين رأينا الشمسَ أوَّلَ مرَّةٍ
لــمْ نعرفها
حسبناها مركبةً فضائيةً.

نحن الجيل الذي ولدَ بعد سنة 1970
لا أحد يفهم مأساتنا
نحن الذين لــمْ نرَ الشمس من قبل.

هذه ثورةُ القبو
يُفجِّرها جيلُ القبو
وهي فرصتنا الأخيرة.

يا سوريا
أَريني رأسكِ المرفوع
كسبَّابات الشهداء
أريني وجهكِ المخمَّش والغاضب.

حليبُكِ الأبيضُ يفور كالينابيع
ليجرف جوعنا الأزليَّ
وحنانُكِ الغامرُ يصيبنا بالجنون
استمرّي في الحنان
الثورة اليوم هي
كلُّ المعاني الممكنةِ للحنان
خارجها سنعود إلى البرد
خارجها سنعود إلى القبو.

يا سوريا

نحن أطفالكِ الـمُحْتَمين

بجبروت اسمكِ

نحن الواقفين في ظلال ركبتَيْكِ

سندافع عنكِ

ولن نعود إلى القبو

سنعضُّ بأسناننا صفيحَ دبَّاباتهم

ولن نعود إلى القبو

لقد عرفنا الشمسَ

فكيف نعود إلى القبو!

(15 أيلول 2012)

وثائقيُّ الألم

1

في تشييعه
وضع الأبُ يدَه
على وجه طفلهِ القتيلِ
كي يحميَه من حماوة الشمس!

هل جُنَّ ذلك الأب؟
أم جُنَّتْ هذه البلاد؟

2

بعدما قتلت الطائراتُ أباه
قتله البردُ والجوعُ
وُجِدَ ميتاً على الرصيف
وقدماه الصغيرتان
تلبسان حذاءَ أبيه.

كلُّ المقاسات كانت خطأً
في تلك الصورة
من الحذاء إلى الموت!

3

لــمْ يُبكِني منظرُ الدم على قمصانهم
بل أبكاني منظرُ البول على بناطيلهم
الأطفالُ الذين بالوا في ثيابهم لحظةَ قتلهم
جعلوا، لمرَّةٍ واحدةٍ، منظرَ البول
أكثر فظاعةً من منظر الدم!

4

الطفلةُ التي قطعوا رأسها

لـم نعثر على رأسها المقطوع حتى اليوم

فتَّشنا عنه في جميع الأمكنة

وحين تعبنا

أشار أخوها الصغير إلى السماء

حيث القمرُ

الذي بات فجأةً

يشبه رأسَ طفلةٍ صغيرةٍ!

5

بأصابعها الصغيرة
تُغمض عينَي والدها الميِّت
تظنُّه نائماً
وقد نسيَ أن يغمضهما!

6

بياضُ غبار الأنقاض على شَعرها
مَنَحَها شَيْباً
مخيفاً لطفلةٍ في عمرها.

7

«سأخبر الله بكل شيء»
قالها طفلٌ سوريٌّ
غطَّت الدماءُ وجهَه.

«أريد أن أموت
كي أذهب إلى الجنَّة وآكل»
قالها طفلٌ آخر
لم يأكل منذ أيَّام.

8

يبكون من البرد
ويضحكون للكاميرا
أطفال سوريا
براءةٌ زائدةٌ
أم رجولةٌ زائدةٌ؟

9

الطفلةُ التي
أُصيب أبوها بالعمى بسبب القصف
قالت للصحافي الذي سألها عن شعورها:
أريد من الأطبَّاء أن يأخذوا عيني
ويعطوها لأبي
لكي يراني من جديد!

10

شهيد وشهيدة
لعبة جديدة ابتكرها الأطفالُ في سوريا
حيث يدفن الصبيُّ جسدَه
مُبقياً رأسه خارج التراب
ليضحك لفتاته التي
تحثُّه على النهوض قائلةً له:
جاء دوري!

11

نظرةُ الطفل الميِّت تقول للجندي:

من بين جميع رصاصاتكَ... قتلتني قسوتُك.

12

عندما دعا الإعلامُ الرسميُّ
الطلابَ للعودة إلى المدارس
انتشرتْ لافتةٌ يحملها تلميذٌ سوريٌّ:
«مقعدي ملوَّثٌ بدماء أصحابي
وعلى كتابي المدرسيِّ صورة قاتلهم»!

13

الأقواسُ التي حصرتْ بها الصحفُ كلمة «مجزرة»
لــمْ يفهمها الأطفال المقتولون للتوِّ
لذلك ركضوا خارجها.

14

بعد كلٍّ مجزرةٍ
تعبق شجرةُ السماءِ
بأرواح السوريين.

15

لو كانت أمُّه تستطيع...
أن تخيطَ جسدَه الممزَّقَ
كما كانت تخيط جواربه
لو كانت أمُّه تستطيع...

16

قبل أن يُهجَّروا من مدينتهم
ودَّعوا قبورَ الأبناء والأخوة
ولـمْ يعدوهم بشيءٍ
سوى العودة!

17

حتَّى السمك
أخذ حصَّته من لحم السوريين.

18

طالبةُ طبٍّ سوريَّةٍ
وجدتْ أخاها المفقود
في غرفة التشريح!

ومنذ الصباح
كلَّما حاولتُ
تخيُّلَ الموقف
فقدتُ جزءاً من عقلي!

19

باتت أخبار غرق السوريين في البحر
أخباراً شبه يومية...
لـم تبقَ يدٌ لم تتلطَّخ بدمائهم
حتَّى يد البحر!

20

صور البروفايلات
كلُّها صورٌ للشهداء
صار «الفيسبوك» عالَـماً للموتى.

21

شجرة الميلاد السوريَّة
مزيَّنةٌ بدعاءِ الأمِّ
وحسرةِ الأختِ
ولوعةِ الزوجةِ.

يا بابا نويل
لا تكن جباناً
الأيتامُ في انتظارك.

22

ببطءٍ تسيرُ آلامُكِ
كأنها خالدةٌ.

الألمُ سلحفاةٌ
يا بلادي.

الألمُ سلحفاةٌ.

23

تحت الصورة الجميلة
لفتاةٍ سوريَّةٍ كتبتُ:
هذه هي سوريا
وليست ما نراه في الخريطة.

24

عندما غادرتُكِ يا سوريا
لــم يكن معي سوى حقيبةٍ
جمعتُ فيها ثيابي
وسوى قلبٍ خائرٍ
جمعتُ فيه حبِّي لكِ
وحقدي عليهم.

25

بين قِطَعِ المرآة المحطَّمة
أبحث عن قطعةٍ كبيرةٍ
لأرى فيها وجهَيْنا معاً
أنا وأنتِ
يا بلادي.

26

كأيِّ شبِّيح
يقف حرفُ اللام
مُفرِّقاً بين الأمِّ والألم؛
مُفرِّقاً بين الشقيقتَيْن.

27

في الإعلام

يُموِّهون عورةَ الضحية

ويتركون جراحَها!

28

الثورةُ لا تعيد الحرِّيةَ للإنسان
بل تَهْمِزه وتصرخ به:
استعدْ حرِّيتك!

29

في غرفة العناية المركَّزة
تخضع سوريا
لعمليةِ قلبٍ مفتوحٍ
وبين مشارط الجرَّاحين
اندسَّتْ سكاكين الأعداء!

30

ليست الأجساد وحدها
عالقةً تحت الأنقاض

الكلماتُ أيضاً.

31

لـمْ آخذ على محمل الجدِّ
فكرةَ أنَّ الإنسانَ من ترابٍ
إلا عندما رأيتُ النازحين.

32

ما زال الضوءُ المنعكسُ
من هُويَّة المقدَّم حسين هرموش
-وهو يعلن انشقاقه-
يضيء لنا الطريق.

33

الذين تمدَّدوا في «ساحة البيضا»
وداسَ عليهم الـجنودُ
لم يكونوا خمسين شاباً
بل كانوا عشرين مليون سوري
لكنَّ الكاميرا لم تتَّسع للجميع!

(2016 - 2011)

المحتويات

قسوة الكاميرا 07

الجلَّاد الوسيم 08

مئذنة العُمَري 10

السوريون شجر 12

بكمٍّ قميصي 20

دفوف 28

ثلج 34

معجزات سوريَّة 39

الصرخة 43

عكَّازة جدِّي 49

قدمان 50

المدفأة 51

بذار 52

وجه الموت 53

المذهب السوريالي 54
منام النازح 56
انتظار 58
القبو 59
وثائقي الألم 65

صدر للمؤلِّف

في الشعر:

- الرسَّام (1999)
- ملحق الشعراء السرِّي (2001)
- قصيدة فاطمة (2004)
- العروس (2007)
- تمثال امرأة تتجرَّع السمّ (2008)
- حصاة في كُليتي اليسرى (2013)
- السوريون شجر (2017)
- قبورٌ صغيرة (2021)
- أطفال تأخَّروا عن موعد النوم (2021)

في السرد:

- لحظة وفاة الدكتاتور (2011)

في النقد الأدبي:

- محاكمة الشِّعر (2021)

في الثقافة:

- فضائح الآخرين (2021)
- المثقَّف القديم (2021)
- عند تقاطُعِ الفنِّ والسياسة (2021)

في السياسة:

- حكُّ الصدأ (2017)
- مفاتيح (2021)
- مواكبات فكرية للثورة (2021)
- الجانب الصامت من المأساة (2021)

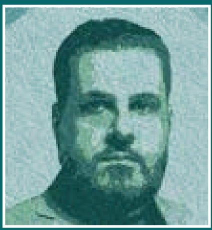
في الفلسفة:

- حقائق من نوع خاصّ (قيد النشر)

منشورات ماهر شرف الدين

من الكتاب

الذين تمدَّدوا في «ساحة البيضا»
وداسَ عليهم الجنودُ
لم يكونوا خمسين شاباً
بل كانوا عشرين مليون سوري
لكنَّ الكاميرا لم تتَّسع للجميع!



شاعر وكاتب سوري من مواليد 1977. كتبَ في السيرة والنقد الأدبي والفلسفة والتاريخ والسياسة.

ISBN: 978-0-9985392-6-3